

المفاتيح الرمزية عند ابن الفارض (الطريق إلى الله)

د/ علي اخضاري (*)



ملخص المقال :

حظي "ابن الفارض" بمكانة راقية في أدبيات التصوف وفلسفته لما اجتمع له من ثقافة أدبية وعقل رصين وشاعرية فذة ، وكغيره من أدباء هذا الاتجاه الصوفي ، حاول أن يعبر عن تجربة صوفية ملهمة عميقة من خلال ترجمة هذا الحب الفياض الذي يطغى على شاعريته وعبقريته . بحيث أن الدارس لهذه الآثار يقف عند سلوكات ومواقف معينة في اتجاه عرف به شاعرنا وهو يبحث عن المسالك أو الطرق التي تزيح هذه الحجب حتى يبلغ مبتغاه ويصل إلى مراده وهو ما رمز إليه بالمحسوب وهو يقصد غايته الكبرى في الوصول إلى " الله " عز وجل .

واستعمل هذا الرمز من خلال عدة طرق حاولنا استنتاجها من خلال شعره ، فقسمنها إلى أبواب ، فبدأنا بالسلوك ثم نفي الحجب والاغيار ثم الموت الاختياري ثم المحبة ثم الأشواق . ولم نتطرق إلى بقية معالم ومظاهر هذه الخصائص أو المفاتيح الرمزية لدى الشاعر لأن المقام لم يسمح بذلك واكتفينا بتحليل البعض منها ، وهي محاولة نترصد الكشف عن المسالك التي تقرب العابد السالك من الله عز وجل وحاولنا تدعيم هذا التحليل بأقوال السلف بما يناسب المقام الصوفي .

(*) أستاذ مشارك بجامعة " ابن خلدون - ب تيارت - ولاية تيارت - الجزائر .

فتلك فلسفة أدبية رائعة من خلال تجوالنا بين الرموز ومفاتيحها التي تمثل قيم أدبية وجمالية في تكوين الصورة الدلالية المعبرة عن عمق وإيحاء تجربة الأدب الصوفي .

الكلمات المفتاحية: السلوك- الرسوم -الحقيقة الصوفية -الطريق- المجذوب-الحجب- المعرفة - المحبة- المجاهدة- مناجاة- الغربية- المحبوب-الفناء-الانمحاء-خيال صوفي-غنائيات غزلية -عالم روحي- الواصلين-الاستغاثة-عين الحقيقة-الإلهام-نفي الاغيار-الخمرة -الظلال- السحاب-العارفين- شهود المحبة -أشباح الاغيار -الموت الاختياري - العوائد -الموت الأحمر والأسود والأبيض والأخضر- المريد- علم المحبة- الصرمدي -الأزلي -الهلاك- الأشواق- حضور- معاينة - الاتحاد-نور- نشوة-الباطن-رموز-اللذة الكبرى-صدود -معنى عذري- .

التعريف بالموضوع والإشكالية المطروحة : موضوع هذا المقال

يدور حول تجربة الشاعر "ابن الفارض" وهي تجربة خصبة متعددة الدلالات ومتنوعة المعاني، وقد استلهمها من ثقافة واسعة ونشأة دينية خالصة ، وعاطفة دينية متأججة ، من خلال هذه المكونات الشخصية التي غرست في اتجاهه التصوفي محبة خالصة قوية ، ومن خلال تتبع هذه الشاعرية الفذة نجد أن الشاعر صاحب ذوق خاص وصاحب فكر متميز ، وقد ساعده على ترجمة هذه المحبة اللاهية التي هي أساس هذا الموضوع .

وتطرقنا من خلال ذلك إلى أهم المسالك التي اختارها السالك المتعبد إلى المحبوب وهو ما رمز به إلى "الله" سبحانه وتعالى ، وكان من الأمر أن ربط بين هذا السالك وبين الطرق التي توصله إلى غايته الأولى وهي بلوغ الذات الإلهية "الله" وقد اشرنا إليها عبر هذه الوقفات ك: السلوك ،و المحبة ،

والموت الاختياري ، والأشواق ، وهي بعض من كثير ، مع أن المتن تتعدد فيه المسالك والطرق لكن هذا ما سمح به المقام .

والإشكالية التي يمكن محاولة الإجابة عنها . هي أننا نحاول الكشف عن عمق الرؤية الصوفية وتشعب التجربة في الأدب الصوفي ، والدعوة إلى قراءة الأعمال الإبداعية الصوفية التي لا تزال تحتاج إلى رؤية جديدة وفق مناهج البحث المعاصر ، ومحاولة إعادة إنتاج هذا التراث القيم من خلال تجدد آليات البحث ، فتمنح مجالا أوسع بالتعريف بهذا التراث الإنساني المشترك ، وتفسح أفقا جديدا للبحث الجاد ، وتعمل على الأخذ من القديم النافع سيرا على الاجرائيات المعاصرة التي يتطلبها البحث الناجح مهما كان موضوعه ، وبذلك تمنحنا هذه الدراسة نوعا من استكشاف دلالات ومعاني النص التراثي الصوفي التي لا يستغنى عنها طالب العلم أو الباحث في هذا الاتجاه ، ونحن في حاجة إلى مزيد من النظر والتأمل في هذا المجال الواسع والعميق الذي هو جزء من تراثنا الإنساني الأدبي .

- الطريق إلى الله -السلوك :

فلو كنت أدري أين خيم أهلها *** وأي بلاد الله اذ ظعنوا أموا
 إذن لسلكننا مسلك الريح خلفها *** ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم^(١)
 عند ما اكتمل ابن الفارض متطلبات الدين من صوم وصلاة ...
 وهو ينهل من علوم الشريعة ما تمكن به من علم الظاهر متوقف به على
 الرسوم والمظاهر ، ظهرت له ينابيع الحقيقة التي لا يلجأ إليها إلا من باب
 السلوك فتحدد له وترسم له ككل صوفي الطريق إلى الله .حتى قال ابن
 عجيبة : «السالك يرى الخلق ويستدل بهم على الحق ، والمجذوب يرى
 الخلق بعين الجمع لا يحجبه خلق عن حق ولا حق عن خلق ، فكانت
 طريقة القوم تسمى الذي دخل فيها سالكا أي سائرا إلى الله »^(٢) . وهو
 يشير إلى أن ي الطريق إلى الله ثلاث مسالك - أولها طريق السالك : وهو
 المتطلع إلى الحقيقة في معرفة الله بالتدرج من الأثر إلى المؤثر ومن
 المصنوع إلى الصانع - وثانيها طريق المجذوب : وهو ما صرف عن
 نفسه وعن الخلق ، وهمه التعلق بالخالق ، وهو يرى الحق بعد رحلة
 سلوكية يعود إلى الخلق - وثالثها طريق السالك المجذوب : وهو يرى الحق
 في الخلق والخلق في الحق ، لأنه يرى الخلق بعض تجليات الحق .

وعندما نعود إلى شاعرنا "ابن الفارض" نجده سلك طريقة التدرج ،
 فقد شب على نشأة دينية ، حيث اخذ الفقه على مذهب الشافعية ، والحديث
 عن الحافظ ابن عساكر ، فكانت هذه الوجهة الدينية قد غرست في نفسه
 الخوف من الحرام وإعانتته على المجاهدة في سبيل محبة الله ، وهو القائل إن

الذي لا مجاهدة له لا سير له ولا محبة له ، فكانت نفسه لوامة لا أماره بالسوء .

فنفسي كانت قبل لوامة متى *** أطعها عصت أو أعص كانت مطيعتي فأوردتها ما الموت أيسر بعضه *** وأتعبتها كيما تكون مريحتي وأذهبت في تهذيبها كل لذة *** بإبعادها عن عاداتها فاطمأنت

فمخالفة النفس بآلية المجاهدات كانت من الشروط الأولية للوصول إلى المحبة ، لأنها آليات تلزم النفس بما هو أحق ، وتبعدها عن حب الدنيا والخلق وملاذمها وشهواتها ، فلا مؤنس له إلى ذكر الله ولا ملجأ له إلا مناجاته ، وهو مع هذا كله يشعر بالوحدة والغربة في الدنيا ، لأنه يرى إلى موطن آخر يحن إليه حنو الرضيع إلى صدر أمه .

بين أهليه غريبا نازحا *** وعلى الأوطان لم يعطفه لي
جامحا إن صبرا عنكم *** وعليم جانحا لم يتأني^(٣)
وشعره يزخر بألوان من الحنين الذي ينتظره ، والجزع الذي يصيبه في هذه الدنيا ، وهو يبذوا كالأسير المقيد الذي يتطلع إلى التحرر ليقترّب من محبوبه ، لأن عدة عوامل تحول بينه وبين حقيقة المعرفة الصحيحة ، ومن بينها انه يحمل عقل قاصر محدود النظر تجعل مسافته في الطريق شاقة طويلة للوصول إلى المراد وهو معرفة المحبوب " الله " يقول في ذلك :

وإذا ما امن الرجا منه أدنا *** كفعنه خوف الحجا أقصاك^(٤)

وعند ما نتطلع إلى أوجه هذا الحنين ، نجده متصلا إلى عدة أماكن وكان على رأسها زيارته إلى مكة والمدينة ، ونعتقد إن لهذا أثرا واضحا في

بعض قصائده لأنه كان السبيل إلى إلفنا والانمحاء في عالم كله سحر وعاطفة دينية متأججة تائرة تحول الشاعر من مسرح الدنيا إلى خيال صوفي صاف عذب . فانظر إلى قوله في إحدى غنائياته التي ترددت في كثير من المجالس:

ناشدتك الله إن جزت العقيق ضحى *** فأقر السلام عليهم غير محتشم

وقل تركت صريعا في دياركم *** حيا كميث يعير السقم للسقم

وهذه سنة العشاق ما علقوا *** بشادن فخلا عضو من الألم^(٥)

وأكثر شيء يشد " ابن الفارض " المتعبد السالك إلى الحنين أيضا اقتراب موسم الحج حيث تزداد مجاهداته نحو علو النفس بالهمة للسالك التي تعرج به إلى عالم روحي أعلى . يسموا عندما يتعلق بهذه المواضع المقدسة الطاهرة ، فتغدوا هذه المعالم رابطا بين العالم المادي والعالم الروحاني ، ويواصل شيخنا حنينه إلى شيوخه الواصلين ، لعله يقترب ولو شيئا مما بلغوه ، لانه مازال يخطوا خطواته الأولى في بداية طريقه إلى معرفة " الله " ، وقد نجد هذا اللون من الحنين في بعض قصائده مستغيثا بهم حيث يقول :

هجركم إن كان حتما فربوا *** منزلي فالبعد أسوا حالتي
عللوا روحي بأرواح الصبا *** فبرياها يعود الميت حي^(٦)

وهكذا كان كل شيء في حياته له صلة بالمحبة التي تدفعه إلى استكشاف الطريق التي يسلكه حتى يصل من خلالها إلى معرفة الله ، وهي عين الحقيقة ومصدر الإلهام لشاعرنا ثم نتطرق إلى السبيل الثاني وهو نفي الحجب والأغيار : ولعلنا ننطلق من قول ابن عجيبة الذي يقول : « الخلق في التحقيق عدم والوجود إنما هو الله الواحد الأحد فوجود السوي كالهباء في الهواء أو كظلال الأشخاص إن فتشته لم تجده شيئا »^(٧) هذا القول مستمد

من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه : « إن الله احتجب عن أهل السماء كما احتجب عن أهل الأرض وإن أهل الملا الأعلى ليطالبونه كما يطلبونه انتم ، وانه ما حل في شيء ولا غاب عنه » ^(٨) . والحديث يشير إلى أن الإنسان مكلف بمعرفة "الله عز وجل" وطلبه ، أي الوصول إليه ، وانه ليس في الأشياء ولا بعيد عنها ، وإنما احتجبت حقيقته عن الغافلين ، ولذلك تجد العارفين يطلبون هذه المعرفة ويسعون إليها بكل جهد في هذا الكون ومن ثمة فهم يرون أن الحجاب على درجات ، فذات الله تعالى حجبت بالصفات كالْحكمة والقدرة والقهر ، والصفات حجبت بالأفعال وهو تصريف مظاهرها في الكون ، فالْحكمة تتجلى من خلال نظام سير الكون وانتظامه ، والقهر يظهر في الخسوف والزلازل ، ولذلك ترى من خلال هذه الظواهر صفة للقهار ، بخلاف من رآها ظواهر طبيعية عادية فانه يحجب عن هذه الصفة ، ولذلك كل من يتجاوز الحالة العادية إلى نظرة وراءها مسبب وقاهر فهو قد وصل إلى شيء من معرفة "الله" سبحانه وتعالى ومن ثمة نجد أن هؤلاء الصوفية قد تجاوزوا الفعل والصفة ونظروا ما وراء ذلك فأنكشف عنهم الحجب في معرفة ذات "الله" والنظر إلى غير الله حجاب عن الله ، فتأمل قول "الششتري" في هذا الشأن حيث يقول:

لا تنظر إلى الأواني *** وانظر إلى المعاني لعلك تراني ^(٩)

ويرى بعض ممن ألهموا بهذه الروح الصوفية ، أن الكائنات كالظلال ، حيث أن ظلال الأشجار لا تعوق السفن السيارة عن مسارها ، ومن ثمة تتضح حقيقة الحجاب ليس أمرا وجودا بينك وبين الله ، ولذلك فان حقيقة الحجاب توهم فما حجبك عن الله وجود موجود معه ، إذ لا موجود معه وإنما حجبك توهم موجود معه وهذه إشارة جاءت من فقرة إلى احد علماء

الصوفية وكبارها وهو " ابن عطاء الله الله " (١٠) وفي هذا الاتجاه يقول " محمد بن الحبيب " :

لكن توهم غيره يخفي به *** فانبذ هواك إذا أردت تراه (١١)
ومن ثمة كانت كل الأشياء في الوجود لا وجود لها إلا من خلال
صلتها بالله ، أي أن كل شيء يوحى بقدرة قادر وكل ظل شيء يشير إلى
وجود قاهر معبود ، ومنه كانت معانات الصوفية اشد من غيرهم وعذابهم في
ذلك كبير ، لأنهم يبحثون عن حقيقة ذات الله ومعرفتها ونفي الاغيار ورفع
الحجب يقول شاعرنا حول هذه المعاني :

أي تعذيب سوى البعد لنا *** منك عذب حبا ما بعد أي
ويفسر "النابلسي" (١٢). هذه المعاني أن كل أنواع العذاب لديه حلوة إلا
عذاب البعد عن شهود المحبوبة فهو عذاب الكافرين ، كما تشير إليه الآية
الكريمة: « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » (١٣) وقد رمز إلى ذات الله
بهذه المحبوبة التي احتجبت بالآثار الكونية ، ولما وعي وأدرك شاعرنا
طريقه إلى الله فلم ينظر إلى غير الله ولا يحب أن يشرك فيه أحدا وهو
المنزه والأعلى عن ما سواه وكل التفات أو حشجة نفس تعد شركا وهو
الموحد الزاهد السالك إلى المعرفة الكاملة يقول في ذلك :

وحد القلب حبه فالتفتاتي *** لك شرك ولا أرى الإشرাকা (١٤)

ومتى بلغ هذه المكانة ، وهي مكانة توحيد الحب ، زاحت أشباح
الأغيار ورفعت الحجب وتركزت الأنظار إلى الله وحده ونبذ ما سواه يقول
في ذلك :

عني إليكم ظباء المنحنى كرما *** عهدت طرفي لم ينظر لغيرهم (١٥)

وهو يشير هنا إلى كل شيء يحجب السائر إلى ربه حيث رمز بالطباء ، ويشير إلى الخمرة التي تبقى تثير النشوة من خلال إطفاء الظمأ لدي الواصلين والعارفين بالله .

لقد تنوعت لغة "ابن الفارض" باستعماله كل عناصر الطبيعة كالظلال والسحاب ، واستعمل لغة التراث لتجسيد فكرته وتصوير مشهدها ، ورمز بعدة مكونات كاستعماله لشخصية العذال واللائمين إلى الاغيار التي تحجب عن المحجوب الأول حيث قال^(١٦) :

قل للعذول أطلت لومي طامعا *** إن الملام عن الهوى مستوقي
دع عنك تعنيفي وذوق طعم الهوى *** فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

هكذا نجد شاعرنا قد نجح في نفي الاغيار ليتمكن من أن يصل إلى محبوبه ، وتلك هي ثمرة طال ما اجتهد في طلبها والسعي لتحقيقها ، وما كان عليه إلا نفي نفسه التي تقف حاجزا أمام مبتغاه وفي هذا الجو نلتفت إلى عنصر يكمل هذه المعاني وهو الموت الاختياري .

الموت الاختياري : قال "أبو الحسن الششتري" :

إن ترد وصلنا فموتك شرط *** لا ينال الوصال من فيه فضله

وقد ننطلق في هذا الباب من حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : «موتوا قبل أن تموتوا»^(١٧) والقصد فيه إفناء مطالب النفوس «وهذا لا يكون إلا بعد موت النفوس وخط الرؤوس وبذل الأرواح وبيع الأشباح لمعنى جاء في قول الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾»^(١٨) ، وبهذا فان قتل النفس كما أشار " ابن عجيبة لذلك هو

« خرق عوائدها وردّها عن شهواتها ، وأعظم العوائد العز والجاه فلا تنتقل إلى الذل والهوان والخمول إلا بعد جهد جهيد وقتل شديد فإذا صار عند ها الذل والعز والخمول والظهور سواء فقد تحقّق موتها »^(١٩) . ولقد اتجه بعض المتصوفة إلى أن هذا الموت يتعدّد إلى أربع موتات : الموت الأحمر ، والموت الأسود ، والموت الأبيض، والموت الأخضر ، أي على الترتيب : مخالفة النفس ، ثم احتمال الأذى من الخلق ، ثم الجوع ثم لبس المرقعات ، ولهذا فأنهم يعملون على موت حظوظ النفس حتى تبقى خالصة لله وحده ، فجاء في قول الجنيد مشيراً إلى ذلك معرفاً بالتصوف: « هو أن يميّتك الحق عنك ويحييك به »^(٢٠) وقد أشار إلى هذا المعنى أبو العباس المرسى في قوله : « لا يدخل على الله إلا من بابين ، إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي ، وإما من باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة »^(٢١) . وهذه الطائفة يقصد بها طائفة المتصوفة ، ولهذا نجد أن الكثير قد طرّفوا هذا الباب وجعلوه باب الحياة الحقيقية ، وقال " الششتري " في معنى بيت من قصيدة له ، أنك تراني حيا بعد موتي ، لأنه يرى أن الحياة في الاستماتة والفناء في الوصول إلى مقام المحبوب بعد مجاهدات وجهد جهيد ، ولهذا يشير " النابلسي " في ما معناه قائلاً :

وتمتعت أرواحنا بهلاكها *** فيه ولاذت بالفناء لياذا^(٢٢)

ويقول أيضا في هذا المعنى " أبو مدين الغوث "

حيينا بها دهرابها وقد حكمت لنا *** ونحن بها نحيا يقينا إذا متنا^(٢٣)

فيقصد الأول أن الغاية و المنة في إفناء حظ النفس وموتها ، كما يشير الثاني إلى أن أيضا إلى هذا المعنى نفسه . وقد ذكر " ابن الفارض " هذه المعاني وسبق بها هؤلاء ، وهو يدور حول قضية أن- الموت

الاختياري - هو السبب في بقاء حياة الأرواح متعلقة بالله ، فكان النظر من وراء القصد وهو أن الموت سبب الحياة . غير ما تعرف عند عامة الناس أن الموت هي النهاية من الحياة الدنيا . فقتل النفس إحياءها وإحياءها هو قتلها مادامت تحتجب بنفسها عن الله . يقول شاعرنا في هذا الصدد:

الموت فيه حياتي *** وفي حياتي قتلي (٢٤) .

ويتكلم عن الحب الذي يصرف كل هم النفس إليه حتى توافق المحبوب لأنه أعظم واجل واعز مطلوب ، لان هذا الحب نوع من الموت والفناء في من تحب فيقول :

مالي سوى روحه وبازل روحه *** في حب من يهواه ليس بمسرف (٢٥)

ويقول أيضا في هذا القصد :

ولقد أقول لمن تحرش بالهوى *** عرضت نفسك للبلأ فاستهدف

أنت القتل بأي من أحببته *** فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي (٢٦)

فهذه النفس لا بد أن تختار من تصطفيه لتموت من أجله ، وقد يتجرد مبتعدا من كل شيء يجعله يتصل بأثر الإنسان ، لأنه يريد الخلو لله وحده لا يشرك معه شيئا من حطام الدنيا وأهوائها وشهواتها ، لان الموت في الله طريق إلى الاستعلاء والخلوص من أدران الدنيا ، لكنه يبقى يصارع نوازع الدنيا لأنها دائما متشبثة بعوائدها مما تجعل هذه الرحلة شاقة متعبة . ولكن " ابن الفارض " وهو يتقلب من طريق إلى طريق قاصدا السبيل إلى محبوبه محاولا إزاحة هذه الحجب ، فنراه أيضا يستعين بسبيل آخر هو طريق - المحبة - فلنتأمل هذا الاتجاه .

المحببة : يقول "ابن عجيبة" في الفتوحات الإلهية : « أولها جنون وأوسطها فنون وآخرها سكون » واصل هذه المحبة هو تفسير قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (٢٧) وقد أشار أيضا إلى حديث قدسي جاء فيه أن الله خلق الخلق ليعرفوه ، وهو في طيات بعض مؤلفات الصوفية يقول فيه رب العزة والجلال : « كنت كنزا مخفيا لم أعرف فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني » (٢٨) ولهذا كان هؤلاء أوفياء في حبهم ، لأنهم يرون أن المحبة هي العلاقة الوطيدة التي إذا سلكها المرید تقربه إلى (المحبيب) الله ، وان المحبة هي الصفة الحقيقية التي اخرج من اجلها الإنسان إلى الوجود ، وانه بها وحد الله ، ولذلك قالوا أن الله اخذ بزمام قلب المرء فلا يلتفت إلى غير معبوده ومحبوبه فمتى قل هذا الحب نجد الالتفات إلى غير الله . ومتى قوي هذا الحب ابتعد عن الالتفات إلى غيره . كما أشار إلى ذلك " ابن عجيبة " في إيقاظ الهمم (٢٩) ، والمحبة من ثمرات البسط لأنها تقوم على مشاهدة الجمال الأزلي فمتى شاهد الصوفي ذلك غشته الأنوار وتاه في حضرتها بقول " ابن مشيش "في هذا القصد : « المحبة أخذ القلب وخطفه عند كشف نور الجمال وقدس الجلال » (٣٠) . فلهذا فلا محبة مع الله ، لأنه جميل يحب الجمال ، ولا محبة مع مصلحة أو غرض دنيوي زائل ، فلا بد أن يكون هذا الحب خالصا صافيا لا شائبة فيه . ولذلك فإنهم يرون انمحاء ما سوى المحبوب من القلب حتى لا تخالطه نوازع أخرى قد تشترك في أمر المحبة وبالتالي لا محبة ترضى عند الصوفي الحق . حتى قالوا أن المحبة هي أساس الاتحاد ، وزادوا حتى قالوا : « لا ينبغي للصوفي أن تشغله المحبة عن شهود المحبوب بحيث يفني علم المحبة فلا يدري بتلك الحالة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة » (٣١) أي انك لا تنتظر إلى محبوبك تحاول

مشاهدته فهذا قد ينقص علم المحبة ، ولكن لا بد أن ننظر إليه بعين الرضي
القلبية الواسعة التي تحيط بكمال الأشياء وجمالها خاصة في يتعلق بالله عز
وجل .

ولهذا كانت المرأة رمزا للمحبوب الحق ، لأنه سر جمال الكون
فاتخذت واسطة لتعبير عن هذا الجمال الصرمدي الأزلي المحجب كما
تحتجب المرأة وراء جمالها الفتان فلا يصل إليها إلا من طلبها وأراد جمالها
، ولذلك نجد شاعرنا بلغ مكانة عالية في هذا الصدد مخلدا غنائيات غزلية
صوفية رائعة ردها دارسوا الأدب الصوفي والمهتمون به ، وهي تدور
حول الوله بالمحبوب الأزلي (المرأة) واصفا جمالها ومواطنه فيها وشكلها
بكل دقة وفن ، متوددا عله يجد نظرة ترقبه من محبوبة (المحجوب) ، وقد
يزداد القرب وتزداد المحبة تعلقا عند ما يجعل من هذا الجمال والمحبة دينا
له مطوعا له كل شيء من الجوارح ، سالك له كل طريق ودرب مبتغيا كل
وسيلة تربط هذه المحبة القوية الخالدة التي لا يحيد عنها ولو لحظة حتى لا
يشرك أو يرتد . قال "ابن الفارض " :

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب *** وان ملت يوما عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك إرادة *** على خاطري سهوا قضيت
بردتني (٣٢)

وهكذا نجد أن معظم إشعاره تدور غزلا بالخطر الإلهية بلغة بدوية
عزبية أحيانا وبلغة صوفية معبأة بالمصطلح الصوفي الذي يتوزع إلى
دلالات ومعان تفيض بالحب والعاطفة الصوفية المتفردة ولا تخلوا في كثير

من الأحيان التفاتاته إلى الغنائيات والطرب التي تتسع الى نشوة الصوفي التي
تغمره من حين إلى حين تأمل قوله :

انتم فروضي ونفـلي *** انتم حديثي وشغـلي
يا قلبي في صـلاتي *** إذا وقفت أصـلي
جمالكم نصب عيني *** إليه وجهت كلـي
وسركم في ضمـيري *** والقلب طور التجلي
أنا الفقير المعـنى *** رقا لـحـالي وذلي^(٢٣)

وإن المتصفح لهذا الشاعر الصوفي والمتأمل في غنائياته الغزلية
والغرامية يجده قد استفاد من الثروة الشعرية التي أنتجها الأوائل العذريون
فاستخدمها رامزا ومن بين قصائده التي اجتمعت فيها هذه المعاني لاميته
التي مطلعها^(٢٤) :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل *** فما اختاره مصنئ به وله عقل
فقد شملت معاني العذريين من شكوى الصدود والالتاذ بتعذيب
الحبيب والصبر على الصد والنصح بالابتعاد عن الحب لأنه أساس الهلاك
الذي يقصد من ورائه اللذة الكبرى . وهكذا نجد الشاعر يجعل الوسطة بينه
وبين الله فيختار رموزها وآلياتها أحسن تعبير وأدق تصوير ، فمن الحب
المعروف إلى الحب الخفي المحجوب ومن الجمال الظاهر إلى الجمال
المستور الباطن ، ومن الشوق إلى الدنيا إلى الشوق إلى الأخرى (الله) فتلك
هي المسلك التي نتطرق إليه بعد مسلك المحبة أشواق ابن الفارض:
«..قد تكشف الحجب عن بعض القلوب ، فتحن لوطنها الأول ، فتتمايل
كشجرة تريد قطع عروقها »^(٢٥) "علي الخواص" لقد استغل الصوفية موقف

شوق الإنسان إلى الجنة ، انه شوق في حقيقته إلى رب الجنة ، وقد ظل الإنسان يصارع منذ خروجه آدم من الجنة التي تعتبر وطنه الأول التي تسبب الشيطان في إخراجها منها ، ولهذا قال " ابن القيم الجوزي ^(٣٦) :

وان ضاقت الدنيا عليك برحبها *** ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فإنها *** منازل الأولى وفيها المقيم
ولقد يظل السالكون (العارفون) يتقدمون فلا يحجبهم حاجب دون
الوصول إلى المحبوب الأول ومشاهدة وجهه الكريم .ومن ثمة يبقى الصوفي
غريبا حتى يقيض الله له التقرب منه والحصول على رضاه . ولذلك يقول "
المحاسبى "

أنا في الغربة أبكي *** ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي *** من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي *** وطننا فيه حبيبي ^(٣٧)

وقد جعل الصوفي هذا الوطن (الدنيا) وابتعاده عن الجنة (الله) غربة
وبكاء ، وهي ما يمثل ترك الجنة وهو في الحقيقة ترك الحبيب (الله)
والابتعاد عنه وعلى مدار هذا الشوق دار جزء كبير من كلام الصوفية
باعتباره يأتي بعد تمكن المحبة فيكون الشوق على قدر هذه المحبة ، ومنه
يرى "أبو العباس المرسي" أن شوق النفوس يهدأ ويسكن بقاء الحبيب ،
وشوق الأرواح فهو شوق الحضور والشهود والمعاناة دون علة أخرى ودون
حظ للنفس وهذا هو مقام تنزل الأسرار الأزلية ^(٣٨) .

فلقد تميز شاعرنا بميزة الشوق والأشواق حتى كتب "زكي مبارك" كتابه " (أشواق ابن الفارض) وكانت هذه الصفة مميزة هامة في شعره الصوفي حتى لا تكاد تخلوا قصيدة منها ، ولا ريب في ذلك فان "ابن الفارض" احد الشعراء الذين لهم ثقافة ومعرفة وحب يصب في سلوكه الصوفية ، مما يدفعها إلى البحث عن السبل والمسالك التي تقربه من المحبوب الأول الله سبحانه وتعالى كغيره من عشاق المحبة الإلهية ، ومما يزيده تعلقا وحباً هو تلك الديار المقدسة مكة والمدينة التي زادت من حبه وتقربه إلى محبوبه بما وسعه من مجاهدات ومغالبة لنفس التي تحمل على الموت والهلاك كي يصل الشاعر الصوفي إلى مبتغاه ومطلبه . وأشواقه تتعالى وقلبه يحن إلى الحجاز فيقول في ذلك ^(٣٩):

قسما بمكة والمقام ومن أتى الـ *** بيت الحرام ملبياً سياحاً
ما رنحت ريح الصبا شيخ الربى *** إلا وأهدت منكم أرواحاً
واها على ذاك الزمان وطيبة *** أيام كنت من اللغوب مراحاً

الخاتمة

هذه تجربة الشاعر الصوفي "ابن الفارض : أحد الكبار الذين أسسوا الفكر الغرامي والفلسفة الصوفية ، والتي أعطت ثراء قويا بارزا للأدب العربي عموما والأدب الصوفي خصوصا ، وهي نقلة نوعية منفردة توحى بعمق الثقافة وأصالة الفكر وغناء التراث ، وتوحى أيضا بأهمية هذا اللون من التجارب الأدبية الناجحة ، وتعطينا ابرز الاستعمالات للرموز بأدق حكمة وأصوب نظام تركيبي بديع للغة ومصطلحات التصوف الغنية والثرية والرائعة .

وان كان البحث عن دقائق وأسرار النظم صعبة المنال ، إلا أننا وجدناها كالعقد الثمين مركبا تركيبا دقيقا ، ولا يتسلل إليها إلا من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، حتى تتكشف له عن ترابط عقدها وتنظيم خيوطها ، وتلك هي خطتنا في تناول هذا البحث القصير المتواضع عن المسالك التي سلكها المحب وابتغاها في طلب المحبوب ، مدعمين تحليلنا بأقوال السلف الصالح في ما يدور حول مضمون كل عنصر طرحناه أو فكرة اشرنا إليها ، مبتغين سبل التيسير والتسهيل خاصة أن الموضوع تتجاذبه اللغة التي لم نألفها والتي نحتاج إلى ترو وتؤدة ، ومصطلح يفيض بالمعاني والدلالات الحية المفعمة بالحيوية والأشواق التي يزخر بها الأدب الصوفي الرفيع .

الإحالات والهوامش :

١. كتاب الصدق ، أبو سعيد الخراز ، ت. عبد الحليم محمود ط ٤ . ١٩٨٠ .
دار المعارف مصر . ص : ٤
٢. الفتوحات الإلهية ، في شرح المباحث الأصلية ، احمد بن محمد بن عجيبة ، بهامش إيقاظ الهمم ، ط . دار الفكر بيروت ٤٣٦
٣. ديوان ، ابن الفارض ، ص : ١٩١
٤. المصدر نفسه ، ص : ١٦٣
٥. المصدر نفسه ، ص : ١٨٣
٦. ديوان ، ابن الفارض ، ص : ٢٠١
٧. احمد بن محمد بن عجيبة ، ص : ٢٣٤
٨. المرجع نفسه ، ص : ٣٩ - ٤٠ .
٩. المرجع نفسه ، ص : ٣٩ - ٤٠
١٠. لطائف المنن ، ابن عطاء الله السكندري ، ت - عبد الرحمان العك
ط ١٩٩٢ ، ١ ، دار البشائر ، دمشق . سوريا ص : ٢١٤ / ٢١٥
١١. ديوان بغية المريدين السائرين وتحفة السالكين العارفين ، محمد بن الحبيب الحسني ، ط . خاصة . ١٣٦٨ هـ . ص : ٥٦
١٢. سورة المطففين ، الآية ١٥ .
١٣. شرح النابلسي ، النابلسي . ج ١ ، ص : ٧٣
١٤. ديوان ، ابن الفارض ، ص : ١٦٦

١٥. المصدر نفسه ، ص: ١٨٤
١٦. المصدر نفسه ، ص: ١٥٨
١٧. إيقاظ الهمم ، ص: ١٩١ ، ابن عجيبة
١٨. المرجع نفسه ، ص: ١٩٠ ، والآية ١١١ من سورة التوبة .
١٩. الفتوحات الالهية ، ابن عجيبة ، ص: ٣٣٦
٢٠. المرجع نفسه ، ص : ٣٣٧
٢١. إيقاظ الهمم ، ابن عجيبة ، ص: ٤
٢٢. لطائف المنن ، السكندري ، ص: ٢١٩
٢٣. الرمز الشعري عند الصوفية ، عاطف جودة نصر ، ط ٣ ، ١٩٨٣ ، دار
الاندلس .بيروت لبنان . ص: ١٦٩
٢٤. ديوان ابن الفارض ، ص : ١٧٧
٢٥. المصدر نفسه ، ص: ١٥٦
٢٦. المصدر نفسه ، ص: ١٥٨
٢٧. سورة المائدة ، الآية : ٥٤
٢٨. شعر عمر بن الفارض ، عاطف جودة نصر ، ص ٢٥١ ، ٢٥٠
٢٩. إيقاظ الهمم ، ابن عجيبة ، ص: ٣٤٠
٣٠. المرجع نفسه ، ص: ٣٣٩

٣١. اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ورجاله ، أبو نصر السراج الطوسي ، تح كامل مصطفى الهنداوي ط١، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠١، ص: ٥٥.
٣٢. ديوان ، ابن الفارض ، ص: ٣٨
٣٣. المصدر نفسه ، ص: ١٧٧
٣٤. المصدر نفسه ، ص: ١٦٨
٣٥. الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، ت. محمد أديب الجادر ط١. ١٩٩٩ دار صادر بيروت لبنان ج٣. ص: ٤٢١
٣٦. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، ابن القيم الجوزي ، ت. محمد حامد أُلْفَقي .دار المعرفة .بيروت لبنان .ج١. ص: ٢٧
٣٧. ابن الفارض شاعر الغزل والحب الإلهي ، علي نجيب عطوي ، ص: ٧١
٣٨. لطائف المنن (بتصرف) ، السكندري ، ص: ٢٠٧
٣٩. ديوان ، ابن الفارض ، ص: ١٢٧ .